

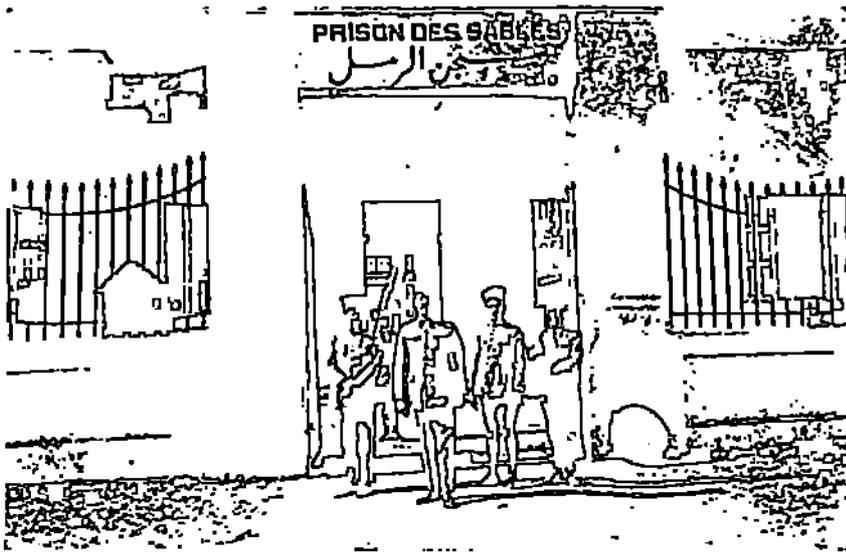
نظر اجتماعي للاب تونل اليسوي

٢

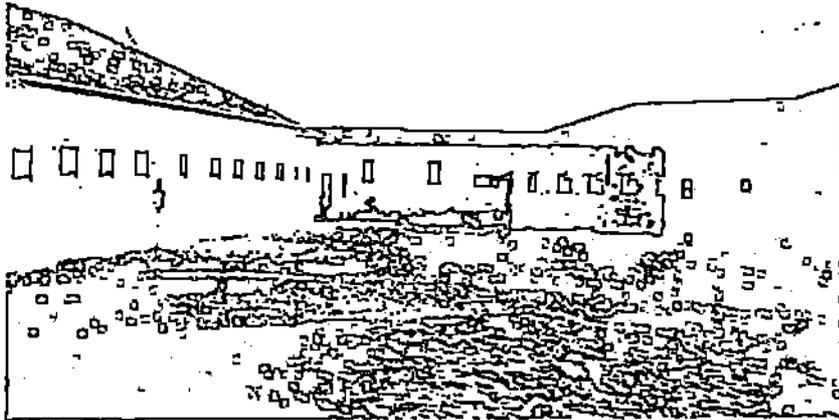
دار القوس العتلة

الفكرة في السجون مع الزمان ، وتأثرت بالتعليم الحديث ، ورأت الحكومات المتقدمة من واجبها ان تنظر الى السجون ليس فقط لكونها مقام القمع والانتقام والتكفير ، ولكن مكان الاصلاح والتأديب ايضاً . ومن ثم فللمعتلين بعض الحقوق في ان يعاملوا ليس فقط بالعدل وبموجب القانون الجزائي ، ولكن بالرفق والانسانية ايضاً .

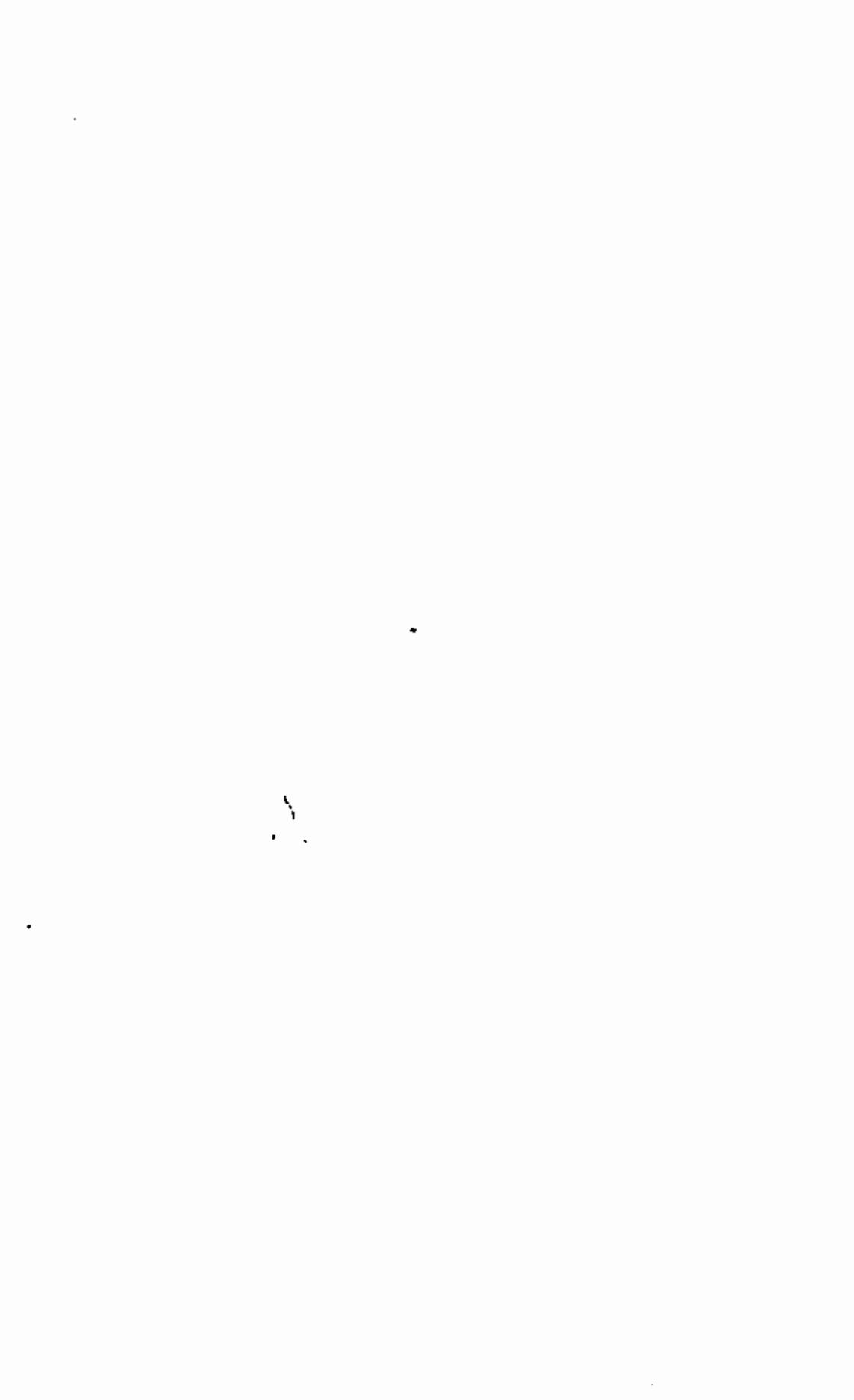
وانما الترض من هذا المقال انت النظر الى ما يحتاج اليه السجناء من سراحة وعناية ادبية ومادية ، فنكشف على حالتهم النفسية وعن عوامل الشر في حياتهم . فانها لا ترفع عنهم مسؤولية اعمالهم ، وهم متمتعون بكامل حريتهم مضيرون في مقاصدهم وافعالهم ، فارتكبوا الجناية ومن العدل ان يعاقبوا عليها ؛ ولكن ظروف سقوطهم تدل على انهم كثيراً ما يندفعون الى الذنب اندفاعاً عن اضطراب في قواهم العقلية ، وقد تسمع كثيرين من سكان السجون يلعنون ساعة الجريمة ويقولون : طغاني الشيطان . ولا بد من امان النظر في اسرهم ودرس العوارض التي ادت بهم الى السجون لتكون على بصيرة من معالجتهم ادبياً ومادياً .



سجن بيروت - ضباط الادارة والحرس



صورة فناء السجن الداخلي في بيروت أخذت من الجهة الشرقية



تعليم لامبروزو

واولاً لا بد من تنفيذ اقوال الايطالي لامبروزو ، من ينسبون اليه نظرية « الجريم الفطري » . رأى ان بعض العلامات البدنية كهيئة الانسان وحجم رأسه وتقاطيع وجهه وملامح عيونه وغير ذلك من الامارات الفسيولوجية والبيكولوجية دليل على ان هذا الانسان متقاد الى ارتكاب الجرائم انقياداً اعمى ، نافية الحرية الشخصية . وحاول اثبات قوله باختبارات اجراها في السجون وقال ما ملخصه ان الانسان مرتبط برباط السلالة مع سائر الكائنات الحية ، بالصفات الموروثة من صالحة او طالحة ، وان البيئة التي نشأ فيها أدت الى صيرورته في حالة غضبه على ارتكاب الذنوب . وقال ايضاً ان بعض الطامحات الدماغية دليل اكيد على ان من ابتلي بها انما هو مجرم بالفطرة ، مضطراً الى ارتكاب الجرائم . واستنتج من ثم ان من حكمت عليهم الحكومة بالسجون كان الاولى بها ان تضمنهم في المستشفيات او المارستانات .

ولكن العلماء فندوا طراً اقوال لامبروزو . فان مزايا الاب الشريرة لا تقع حتماً في البنين ، ورب ولد صالح نشأ عن أب شرير . وكثيراً ما تصلح التربية الحسنة الفساد اللاحق بينية الاولاد المولودين من الدين مصابين بالطامحات ، وكثير من الملامح التي اتخذها لامبروزو برهاناً قاطعاً على ان صاحبها انما هو «جريم بالفطرة» قد تبدو على وجوه الاصحاء الصالحين . وجل ما يدعونا الى تنفيذ رأيه هو انه ينفي وجود الجرعة الحقيقي بنفيه صدورهما عن العقل والارادة والحرية ، ويدعو الى نقض الشرع في دعائه في ذمه العقوبات والسجون .

ولكن فيما نحن نبتعد عن لامبروزو ، علينا ان نتجنب التطرف الضارب صفحاً عن العوامل والظروف التي تخفف من مسؤولية المجرمين ، فحقوقها مراعاة في تشريع البلاد المتسدة ، وهي الداعية الى تلطيف العقوبات ؛ وقد اوحى الى اولياء الامر نظامات السجون الحديثة المختلفة على اختلاف البلاد واخلقتها ومشاربها ، كما سئى . وهي التي ادخلت في القانون الجزائري في بلادنا المواد

المرجوة للعذر المختفة انواع القصاصات^(١) . لان النفس وقواها ، وان تكن باطنياً وفي الداخل ، كما يقول الفلاسفة ، غير مقيدة بالمادة ، فهي مقيدة بها خارجياً وبانواع شتى . وبهذا المعنى صدق من قال ان العقل لا يفقه الا ما ناله من الحواس . ولا بد من امان النظر في هذا الكلام تحطياً الى ما يزيد من الكشف على حالة السجين النفسية .

العقل الصحيح في الجسم الصحيح

هذا غاية ما كان يتمناه الرومان للانسان في حياته حتى سار عندهم مثلاً فقالوا « *mens sana in corpore sano* » وهذا ما تعلمنا طلبه من الله في صلاتنا الكنائسية: صحة النفس والجسد ، اذ فيها الوقاية من جميع الشرور ، ولا تنوب البشر نائبة الا عن اختلال فيها . فمن تمكن من كامل قواه الروحية والجسدية تمكن من القيام بواجباته احسن قيام ووفى الطبيعة البشرية حقها . والأفلا . لان الانسان حيوان ناطق ؛ بجسده يشبه البهائم ويروحه يشبه الملاك . فالفرق بينه وبين العجاوات هو انه يعقل ويفهم ولذلك سمي ناطقاً ، والفرق بينه وبين الملاك هو ان نفسه الروحية مقيدة في اعمالها بالحواس ، فلا يدرك بالعقل الا ما يتاله بالحواس بخلاف الملاك . وان الصلة في الانسان بين النفس والمادة والعقل والحواس مبهودة بشروط كثيرة اذا ما اضطرب احدها تلبلت من ثم حياة الانسان في سائر مراقبها تلبلاً متفاوتاً على تفاوت الاضطرابات الواقعة في تلك الشروط .

قال الدكتور غراه^(٢) ان الانسان في حياته هذه لا يستطيع الاحساس والفكر والارادة طبقاً للواجب ما لم يكن جسده صحيحاً لا تمته شائبة ، وعلى الخصوص ما لم يكن دماغه وخلاياه النخاعية معصومة من كل ضرر . ولما كان هذا التعامل الكامل في العناصر البدنية مما لا يكاد يوجد بين البشر ، فلا عجب ان لا يكاد احد منهم يعصم في حياته واعماله من شائبة دالة عن

(١) راجع باز : مرقاة الحقوق ، عدد ٦٢٣ وما بعده

(٢) راجع مجلة للعالمين الاقرنية ، ٢٥ حزيران ١٩١١

موضع خلل في عقله . وفطن العرب الى هذه الحقيقة^١ » قال ابو حلال : ومن العجب ان العرب غفلت في جميع الحصال باقوام بطوم اعلاناً فيها ، فضربوا بجم المثل اذا ارادوا المبالغة ، فقالوا : احلم من الاحتف ، ومن قيس بن عاصم ، واجود من حاتم ، ومن كعب بن مامة ، واشجع من بسطام ، وايبين من سبحان ، واريس من ابن تغنر ، واعلم من دغل ، ولم يقولوا اغفل من فلان ، فلعلهم لم يتكلموا غفل احد ، على حسب ما قال الاعرابي وقد قيل له حذ لنا العقل ، فقال : كيف احده ولم اره كاذباً في احد . - وقالوا لكل شي . غاية وحذ ، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الازمار في الراحة والطيب .»

لتضرب صفحاً عن اسباب ذلك الخلل في الانسان وعن الاضطراب الذي يحدث فيه من جرأ الخطايا ، مع ما تجرؤه من الماديات السيئة ، وعلى الخصوص من جرأ الخطيئة الاصلية وعواقبها الذميمة ؛ وحبنا النظر الى القضية من الوجهة التي تهتمنا ، اعني الكشف على الاسباب التي دفعت المذنبين الى ارتكاب الذنوب . فانما هي الاختلال في توازن قواهم العقلية والجسدية . كما ان اضطراب الامزجة في البدن يولد الداء ويستدعي الدواء ، كذلك ايضاً نقول ان اعمال المجرمين قد تصدر عن اضطراب يستدعي المعالجة مع مراعاة الفرق بين امراض الجسد وامراض النفس فان تلك غير مقيدة غالباً بجزية الانسان اما هذه فقد ينقلب عليها تصرف الانسان الاختياري ، وان يكن مهوداً بشروط غير اختيارية ، وبعضها متعلق بموارض خارجة عنه وأثر في فيه تأثيراً : كالنشوة والسلافة ، والتربية ، والبيئة ، والطبقة الاجتماعية ، وسائر الظروف التي تتلون بها حياة الافراد ، والواجب مراعاتها في تعيين عاهاته النفسية .

علم العقوس

العقل الشاذ

ضل من ظن ان سكان السجون طراً هم من الناقصي العقل المدومي الذكاء ، القدم ، البلهاء . ا . قد جرى احصاء المجرمين في اسبانية وتوزيعهم فئة فئمة قسمة على تفاوت درجات ذكائهم ، ففحصوا منهم ٢٣,٦٠٠ فكان منهم ١٧,٥٤

(١) النوبري : غاية الارب ٣ : ٢٢٢

بالمئة متمتعون بكامل عقولهم و ١٠,١٧ بالمئة مختلو الشعور بعض الاختلال ؛
 و ١٨,٨٠ بالمئة مفسودو الرأي و ٧,٥ ناقصو العقل ، و ٢,٧٦ مدمومو العقل .
 ودرس احد الاطباء حالة السجناء الفكرية وكان عددهم ٢,٠٠٥ فكان منهم
 ١,٢٤٩ ذور ذكاً . متوسط ، و ٣٧ ذور ذكاً . نابغ ، و ٣٥ بلها . اغنيا ."
 ومن زاد السجون في بلادنا وتحدث الى سكانها وامن النظر في حالتهم
 الفكرية وجددهم اجمالاً غير مختلفين عن اولاد عمهم في اوربة .
 وما يزيد حالتهم تفاقماً انهم في الغالب لم يتثقفوا بالثقافة الادبية الكافية ،
 ولم يفتقروا مبادئ الدين والشرع الادي فلا يسعون لضميرهم او كأن دود
 ضميرهم قد مات فلا ونز ولا تبيت . وان يحيط السجون وامثال المذنبين
 الرديثة عرض ان تقوم موج عقولهم تريدها تلوياً وفساداً . وعدد عظيم من
 السجناء في بلادنا اميون لا صلة لهم بالحياة الفكرية ، الا بما يسمنونه ويرونه
 في محيطهم السيء الردي .

الارادة بين عناد وانتقاد

قال الدكتور غراسه ان ضعف الارادة هو اجلى ما يبدو من مظاهر
 العاهات النفسية في سكان السجون وهذا ما تشهد عليه اعمالهم طراً . ان عزائنا
 في الحياة العادية تشد وتثقل باسباب معقولة ترتبط بالتفكير اوتباجاً بطياً او
 سريعاً بعد فحص العوامل والظروف ، والمقابلة بينها ، واستنتاج نتائجها ؛ وان
 قوة الارادة في الانسان مؤسمة على تلك العزائم . اما قوة الارادة عند الكثيرين
 من المقبلين على الاعمال الذميمة فهي عدم او اشيء بانعدم لانها غير مدعمة
 على اساس معقول ، ومع ذلك فانهم عبيدون متبردون تشي البيمة عن غيها ،
 وهم عن عنادهم لا يتزعزعون . لا تسألهم كيف يفصون وكيف يوصلون
 وجل ما عهدوه في انفسهم هو انهم اشعروا بدافع دافعهم الى العمل فقاموا على
 وجهم يسيون . فلا رأي لهم صادر عن مشورة او عن مقابلة في الامور وعلاقتها
 ولا يردعون النفس الامارة بالسوء ، واذا ما دبوا الخيلة على الجريرة فلا يجسبون

حساباً لديان ولا لفاض ، ولا يخافون الله ولا الناس .
 قد يترددون في مباشرة الفظائع لا عن وسوس بالضمير ، ولكن خشية
 ان يلقى القبض عليهم ويطرحوا في السجون ، فيتداولون الوسائل الواجب
 استعمالها لاتقاء الوقوع في ايدي الجندرمة والسقوط في السجن . اما العذاب
 والاضرار التي يوقعونها في غيرهم ، فليس من طائل تجتهد في نظرهم ، وهم
 يتوهمون ان الجريمة اذا ظلت مكتومة لم تكن جريمة . فاذا خيم الظلام على
 حركاتهم وامنوا مراقبة المراقبين اقبلوا على الفتناع ، لا عن ارادة قوية ولكن
 عن اندفاع اعمى .

اما عواطفهم واحساساتهم فكأنها لا وجود لها . في الغالب لم تتيقظ في
 قلوبهم عواطف المحبة والخير في التربية العائلية ، وقد اعتادوا منذ الصغر الجولان
 والدوران ووقدان الزمان . لا يرقون بانسان ولا بحميوان ومع ذلك فربما اعتراهم
 عاطفة شققة مزورة فيكون على دبك مكسور او على كلب مدعوس ولا
 تدمع عينهم الدموع الشكلى ، وربما سروا عند مشاهدتهم عذاب غيرهم . يفتخرون
 بشجاعتهم واعمالهم المستغربة وهم مع ذلك جبناء كذابون . ينفرون من نصائح
 الصالحين ويتقادون الى خزعات المشردين وخرافاتهم .

عوامل السوء

منها المادية والاقتصادية والاجتماعية والادبية

المادية

من اعظم العوامل الدافعة الى ارتكاب الجرائم شرب المسكرات والادمان
 على المخدرات . قبيل ان يصعد على خشبة المشقة في ساحة المدية في بيروت ،
 في شهر نيسان الماضي ، سُمع احد الاتنين المحكوم عليهما بالاعدام يقول جهاراً
 « العرق المرق ا هو القاتل » . وروي عن محمود فهمي القيسي باشا مدير ادارة
 عموم الامن العام في مصر قوله : ان احدى علل ازدياد الجرائم هي الكوكايين .
 وقال : ان جملة من كانوا في السجون في مصر بسبب المخدرات ١٦٣٤ . وعالج

السيد جولي الاختصاصي في العلم الجنائي قضية المخدرات والمسكرات ، فقال ان المشروبات الكحولية مضرّة ولكن محلات الشرب اضرّت ، اذ فيها تختمر افكار المدمتّين على الشرب ومنها يندفعون الى ارتكاب الجرائم . وقال الاستاذ دوربا ان علّة العاهات العقلية الاساسية انما هي التسمّم بشرب الكحول . وقال قرياني : زها . نصف السجناء من الاحداث هم ابنا . اهلين قد اعتادوا المسكرات .

الاقتصادية

قال الافرنج : الجوع مرشد فاسد . وقال القيسي باشا : « ان ازدياد الجرائم في بعض السنين دون البعض الآخر سببه الازمة الاقتصادية . اذا تدهورت اسعار القطن وانقبضت الايدي التي كانت في الامس مبروطة للعطاش . وجاع الناس حدثهم النفس بالسرقة واذا سرقوا مرة تعودوا السرقة واندفعوا في تيار الجرائم . »

ولا حاجة الى الاسهاب في ذكر الدواعي الدافعة الى التهلك والتجور فاننا هي الجرع غالباً . الجرع الدافع النعجة تلتبس الكلا . في جوار الذيب ، والمزدي بينات الجليل الفقيرات الى المدن لتخدمه فن ثم الى التردد والسقوط والسجن . والجرع هو الداعي الاساسي الى التلصص والتزور والقارات والقتل .

الاجتماعية

مصدرها في الغالب النعرة الدينية ، والحزازات اتقدمية الكامنة في الصدور وان يكن عقلا . الناس لا يتقادون الى تأثيراتها في حياتهم ، فهي مع ذلك قابضة على ناصية حياتنا الاجتماعية في السرقة . فاذا وقعت ازمة او حدث خلاف بين طائفة وطائفة ، اتسع الحرق سريعاً ودب الفساد على الحصوص في العقول القاصرة والارادات الجبرحة .

وضع الاستاذ فرّاد مون¹ كتاباً بالافرنسية على الجنائيات في بلادنا ، وددنا لو عرب لقرا . العربية لما فيه من الفوائد العميمة ، بغض النظر عن بعض الاقوال

والآراء التي لا نواقفه عليها قال في الجرائم التي تسببها الثورة الطائفية ان عددها قد بلغ مبلغاً هائلاً في الايام العصية ، سنة ١٩٢٣ ، في مقاطعة الشوف ، وعدد سكانها لا يجاوز الستين ألفاً ، وقد احصوا ١٧ حادث قتل في شهر واحد وسببه الثورة الطائفية . ومثل تلك الحوادث جرت في البقاع . ولا تأل عن الدم الذي اهرق في الفتن التي قام فيها المنصر القوي على العنصر الضيف ، واعل فيه السيف والنار في جبل عامل بعد الاحتلال وفي ما قبل ذلك في سائر البلاد .

الادوية

السواد الاعظم من السجنا . لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ولم يتقنوا على معلم ، ولم يتهدوا على مهذب . فزالهم ما نالهم من الفساد من عدم ارتيادهم المدارس . ولعل بعضهم دخل المدارس وتعلم ، لكنه لم يجد في اساتذته القدوة الصالحة ولم يتهدب . وان وجود اساتذة غير مستحقين ثقة الامة فيهم لامر معروف حمل الوزير اداءً على اغلاق بعض المدارس . اتقاء الشرور الناجمة عنها للناشئة . في مثل تلك المعاهد تعلم مقاليد التعليم رجالاً خيم على عقلمهم الظلام ، ودب في فؤادهم الفساد ، فلا خير يرجى منهم لحداد الامة . ومن المضرات بالاولاد المدارس اللادينية او المدارس التي لا يلحق فيها التعليم الديني الكافي ، لحرص خوف الله في القلوب والردع عن المحرمات . ان الاحصاءات في هذا الصدد لم تتم في بلادنا فلا بأس ان نتخذها عن غيرنا عبرة

نشرت وزارة التجارة في كندا الاحصاءات الجنائية في السنة ١٩١٥ وفيها تناسب بين عدد الجرائم التي ارتكبها الاحداث في جميع الاقاليم . قابلوا بين اقليم انطاريو المنقلب فيه التعليم اللاديني ، واطليم كيبيك الاكثر عناية بالتربية الدينية ، وكلا الاقليمين يكادان يتساويان في عدد السكان وفي كل منهما زهاء مليوني نسمة ونصف المليون . اما الاحداث المجرمون فهم في البلاد ذات التعليم الديني ثلث ما هم عليه في غيرها . وقاباروا بين مدينة تورونتو وعدد سكانها زهاء ٤٠٠.٠٠٠ ومدينة مونتريال وعدد سكانها زهاء ٥٠٠.٠٠٠ فكان عدد الاولاد المحكوم عليهم في الاولى ٨٥٣ وفي الثانية ٥٦٨ في مدة واحدة ، ولاحظوا ان النفوذ في اتعلم في مونتريال انما هو للمدارس الكاثوليكية ،

وكل يطمح ان المدارس الكاثوليكية هي شديدة الحرص على التعليم الديني ، فجاه مثلها برهاتاً على ان قلة التعليم الديني او عدمه هو من اقوى عوامل السوء .

كثرة الجرائم في بلادنا

حيث تنتشر الاربنة ويفسد الهواء ، يكثر عدد المرضى . ولما كانت عوامل السوء على ما وصفناها من الكثرة والقوة فلا عجب ان يكون عدد الجرائم في بلادنا كثيراً ، وعدد السجون عشرات ، وكالها ، على رجبها ، تنص بالسكان . لا تفتح جريدة اليوم الا وترى جزءاً عظيماً من اخبارها المحلية مديجاً باخبار الجرائم كأن دائرة الامن العام عاهدت ادارة الجريدة على عمود كامل في الصحيفة كل يوم من ايام الاسبوع . هي السلسلة المشؤومة وحلقاتها السرقات والتسدي والقتل والنظم . تجر المذنبين وترجمهم في السجون . كم هو عددهم ؟

قال السيد فؤاد عون ان نظام العقاب في سورية انا هو في تطوره الاول ، ولم يبلغ بعد الى ما يرجى منه من الاصلاح واول خطوة في سبيل الاصلاح هي وضع الاحصاءات الرسمية ، وهذه الاحصاءات لم تتم بعد في بلادنا . وبذل المؤلف المذكور جهده في عد الجرائم في البلاد ، والمقابلة بينها وبين غيرها افادة وانذاراً فقال :

في ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ، كان عدد المحكوم عليهم او المعتقلين في سجون سورية ولبنان وبلاد العلويين وفلسطين ٢٥٠٨٢٧ ، على عدد السكان العام في تلك البلاد وهو ٣.٩٢١.٠٠٠ مما يؤدي الى معدل ٢٠١ على ١٠٠.٠٠٠ ساكن .

اما في فرنسا سنة ١٨٦٩ ، في عهد كانت الحياة الاقتصادية اخف وطأة على البلاد منها عنقاً ، فكان عدد السجناء ٦٥.٠٧٥ على ثمانية وثلاثين مليوناً او ١٧١ على ١٠٠.٠٠٠ ساكن . هذا ولم يشمل احصاء سورية عدد المعتقلين بسبب الثورات الاخيرة من الذين لم ينالوا العفو . فضلاً عن ان العفو العام سنة ١٩١٨ كان قد افرغ السجون من سكانها . فاحصاء الاستاذ عون في سورية يتناول

المحكوم عليهم منذ عشرين سنة وأكثر . فتصور الفرق واحكم في كثرة عدد المجرمين في بلادنا ، وفي واجب الناس سبل الاصلاح لتلك الحالة المشرومة باستعمال وسائل التأديب .

وإذا ما نظرنا الى تطور الحركة في دور القضاء ، رأينا ان عدد الجنايات اخذ بازدياد سنة فسنة .

في بيروت من ١٩١٩ الى ١٩٢٥ ، زاد عدد القضايا ١٧ بالمئة ، وفي دمشق من ١٩٢٢ الى ١٩٢٧ ، ٧٢ ، بالمئة .

اما في فلسطين وقد اجروا الاحصاءات الرسمية ، فالبرهان واضح على تقادم الداء . وتكاثر عدد الجرائم واليك اللائحة فاحكم :

١٩٢٨	١٩٢٧	١٩٢٦	
٠١١٨	٠٠٨٤	٩٥	القتل العمد
٠٠٨٦	٠٠٥٥		القتل من غير عمد
٠١٢١	٠١٠٤		الشروع بالقتل
٠٣٢٣	٠٢٩٦		الجرم البليغ
	٠٠٩٥		التلصص
١٤٩٤	١٣٥٦		السرقة
	٠١٥٨		السرقة المشككة
٠٤٠٩	٠٣٤٥		هتك المرض
٠٦٣٦	٠٤٧٤		الحريق العمد
٠٣٥٤	٠٣٧٨		تزييف النقود
٠٣١٩	٠١٤٩		شهادة الزور

من تقادم الداء . تبدو ضرورة معالجة الداء . واستعمال وسائل التأديب . ليس فقط بالحجر على المعتقلين ، ولكن بتشغيلهم وتعليمهم . والعناية بهم عناية الاستاذ بتلميذه ، والطبيب بمریضه ، كما سنرى . (للبحث صلة)